

من كتب الشرق والغرب

LE HEROS DANS LA VALLEE HEUREUSE

ETIEMBLE

البطل في الوادى السعيد^(١)

العمل في القاذفات الليلية رهيباً حتى لقد كان سلاح الطيران الملكي يحل من كل ارتباط حربي أولئك الذين يقون على قيد الحياة بعد الطيران الثلاثين : إذ ثبت لقيادة القاذفات بعملية حساسية بسيطة أن قليلاً جداً من الطيارين من يعود بعد طيرانه عشرين مرة ذهاباً وإياباً . ولكن كما يعرف المقامرون ما يدعونه « بالخوارق » ، وهي مجموعة أرقام تقسد عليهم حسابهم ، كذلك كان لمكتب قيادة القاذفات « خوارقه » وهم قواد الطائرات والطيارون الذين يقون أحياء بعد أن يطيروا عشرين مرة فوق المحور . ولما أتم جول روا مهماته الثلاثين بانتظام ، علم هذا « الخارق » من رؤسائه أن عليه أن يواصل عمله المهلك لنقص في عدد الرجال . ورغم ذلك فقد رجع من الوادى السعيد ، رجع محطم الأعصاب . ولما عاودته قوته واتزانه

يتكلم الناس اليوم عن الرور بقدر ما تكلموا عنه عام ١٩٤٤ ، ويبذل في إعادة إنشائه من الجهد أكثر مما بذل في تخريبه . ذلك لأن هذا الوادى سيقى كأحد الأماكن التى يقرر فيها مصير حضارتنا . وادغنى ووادمهول ، واد بائس في ذلك الوقت الذى كان يدعى - ويا لغرابة ذلك - وقت السلام . وأكثر بؤساً - لو كان هذا ممكناً - في وقت الحرب العلنة حين كانت القنابل المنهالة بالآلاف الأطنان تحترق فيه آلاف الهوات المبتغاة . وكان طيارو الحلفاء ، الذين كانت تبحث عنهم في يقظة القذائف والمدافع الثقيلة والمطارادات العادية ، يطلقون عليه اسم الوادى السعيد .

كان جول روا Jules Roy ضابطاً ، ثم انضم مبادراً إلى حركة فرنسا المحاربة ، فطار فوق ألمانيا كثيراً ، أكثر من زملائه . وحققا لقد كان

(١) كتب هذا المقال خاصة لمجلة « الكاتب المصرى » .

وتقلت من ذلك الفساد . وهذا
 التعاطف القاسى الذى تعبر عنه كلمات
 عسكرية خشنة ، والذى لا يعرفه إلا
 أولئك الذين يواجهون الموت معاً ،
 هذا التعاطف يفيض على هذه الأفاضيل
 إنسانية ؛ فهو وحده ، بين تلك الآلات
 الميكانيكية الشنيعة التى تكون الطيران
 فى أياها ، الذى يؤكد للطيارين أنهم
 ليسوا بالآلات أوتوماتيكية . ففى وقت
 السلام ، كان يستطيع الطيار فى الطيران
 التجارى ، أن يحتفظ بذاتيته . « وكان
 المرء يلقى حفته لأن إطاراً انفجر
 ساعة الرحيل أو لأن محركاً احترق
 أثناء الطيران ، ولكن ذلك هو
 الذى كان يعطى للحياة قيمتها . »
 قائد الطائرة وملاحها الجوى
 يعرفان أن شجاعتهما ومقدرتهما
 تواجه ضربات القدر وعناصر الطبيعة ،
 بقوى لا يمكن إهمالها . أما أثناء الحرب
 المتلوية ، فلم يكن بين الطيار وبين
 الموت إلا قانون جاف من قوانين
 المتوسطات الحسابية ، أى نسبة مئوية
 معلومة من الخسارة ؛ فقد ولى ذلك
 الزمن ، زمن المبارزات الجوية بين
 المطاردات حيث كان يستطيع قائد
 الطائرة بشئ من الداورة ومن إحكام
 الهدف ، أن ينتصر ويخرج سليماً . كان
 الإنسان عندئذ سيد مصيره . أما اليوم

قص علينا حياة الطيارين . فبعد أن
 كتب « أناشيد وصلوات لبعض
 قائدى الطائرات » ، ألف كتابه
 « سماء وأرض » . و « سماء وأرض »
 هو أيضاً العنوان الذى اتخذته مجموعة
 الكتب التى يشرف عليها فى طبعة
 شارلوت Editions Charlot وقد أضاف
 إليها منذ قليل قصة عن تجربة
 « الوادى السعيد » . ونال هذا المؤلف
 جائزة تيوفراست رنودو Théophraste
 Renaudot الأدبية لعام ١٩٤٦ ،
 وهكذا أثبت محكمو جائزة رنودو مرة
 أخرى أنهم أسلم ذوقاً من محكمى جائزة
 جونكور Goncourt .

وشقريه ، الطيار الأول والشخصية
 الأساسية فى « الوادى السعيد » ، شبيه
 كاخ شقيق بشخصية باتريس فى « سماء
 وأرض » . وباتريس وشقريه ، كلاهما
 شبيه بجول روا . فهما كما جاء فى رؤية
 يوحنا : « لم يحبوا الحياة خشية من
 الموت » . أو كما قال جول روا : « كانت
 فكرة الموت الوشيك تفسد كل شئ » .
 ولو كان الطيارون أقل تأثراً ، لسحروا
 عدداً أقل من النساء ، ولكن فكرة
 الموت الوشيك تفسد عليهم كل شئ حتى
 هؤلاء النسوة التاهبات . أكانت تفسد
 كل شئ ؟ كلا . فالأخوة فى الشجاعة
 والرجولة تسيطر على الشاعر جميعاً

فنعمل ساعة الرحيل أن عدداً محدداً من الطيارين ، لا يزيد أو ينقص إلى اثنين أو ثلاثة ، لن يعودوا إلى قاعدتهم .

إذهب إذن وبين للمدنيين حياة الطيارين وظروفهم ! كتبت امرأة غبية إلى مورين ، صديق شفرييه : « أريد أن يكلل المجد هامتك » . فرد عليها مورين « أنتكلمين عن المجد ، إنه يعرفنا » . وذات يوم كانت إحدى الفتيات تهمس إلى شفرييه في تبغل وذهول قائلة : « ياله من سرح ذلك الذي تستشعره وأنت تقذف برلين بالقنابل » . فلم يرد عليها « بل لم يرفع كتفيه » . ذلك لأنه مقتنع بأن أى شخص يستطيع أن يقع دون احتياط في البطولة كما يقع في بالوعة مفتوحة على حافة الافريز . قال لى مالرو Malraux ذات يوم أثناء حرب أسبانيا : « لقد رأيت فريقاً من أولئك الذين يدعون أبطالاً ، رأيتهم في الطيران . وهم جميعاً طفليون أو مصابون بداء الكذب » . أما أمام قيادة القاذفات فلم يكن هناك محل لأن يمثل الطيار دور البطل . في كل صفحة نلتى الخوف « كان يدع ركبتيه ترتجفان . . . كان السهم يحتفر صدره وبطنه . جف عوده من الخوف وهو في طائرته . . . أحس شفرييه

فمه يمتلىء مرة أخرى بالمرارة . . . احتاج صوت المدفعية من الخوف والصراخ . . . كان شفرييه قد انغمركم كالعادة في لججة الفرع من التصادم . . . كل مساء يأتى يمزق أحشاه . . . كنت خائفاً . . . الخ »

الفرع ساعة الرحيل . الفرع من الطيران جماعات ، والفرع من الليل وكل الأنوار مظفأة والطائرة تحمل ستة أطنان من القنابل قد تنفجر في أية لحظة ، كان شفرييه يلوم نفسه أحياناً على كل تلك المخاوف ، ولكنه في الأغلب كان يتقبلها إذ أنه رغم ذلك لم يكن ليدع مكانه في الطائرة بأى غم كان . « ولم يكن يدري كيف يتخلص منها دون أن يفقد نفسه في الوقت عينه . »

استسلام لا أمل فيه . . . ويحدث في أحيان قليلة قبل الهجوم مباشرة أن يعرف الطيار تلك الهزيمة من السلام العظيم ، سلام يعرفه أولئك الذين يحسون استعدادهم للموت ، وتلك هى البطولة الحقة ، بطولة من لا يحس بطولته بل يهتم نفسه بالضعف . رجال أبطال حقا ، أولئك الذين « كانوا يؤدون مهمتهم دون اندفاع ، ويكادون أن يؤدوها دون إيمان ، ذلك لان المهمة نفسها قد محت فيهم كل اندفاع وكل إيمان . » رجال يجدر بنا أن نفضلهم ،

لهذا السبب ، على القطيع الانساني .
 وذلك الذي يقبل دون بغض ودون
 وهم « أن يواجه الموت القاسى ، سوت
 قاذفات القنابل ، ماذا عليه لو لم يسيطر
 على بطنه أو على مثانته : ذلك الرجل
 هو البطل » . وتلك حال شفرييه .
 لا أثر للاحتقار ولا أثر للكره فى
 حنايا نفسه . وإنه ليذكر عدوه القاتل
 النازى ، فى أشد ساعات القتال ،
 ويذكر طقطقة اللحم البشرى وهو يحترق
 فى طائفة المرششميت . وهو يرى له
 إذ يفنى فى سبيل قضية غير عادلة ،
 ويرى له إذ لا يتقن مهمته إلا ضد
 الانسانية . وأما عن شفرييه فانه
 سيموت دون شكوى بشرط أن يصل
 « إلى سماء خاصة ، وأن يستنشق هواء
 خاصاً ، وأن يذوق خبزاً خاصاً » ، هواء
 الحرية وسماؤها وخبزها . وترى شفرييه
 الضابط المحترف والذي كان كل شئ
 فيه يؤهله لكراهة الألمانى لكونه
 ألمانيا ، وللوطنية الضيقة الأفق ، وللخوف
 من الشعب ومن الطبقات الدنيا ،
 متحداً مع أعضاء المقاومة السرية ، وتراه
 يحس قدرته على محو قرينه التى ولد بها
 وعلى اعتبار وطنه مقصوراً على البلاد
 التى بقيت حرة . « فى اليوم الذى
 وافق فيه على محاربة فكرة ما ، قد
 وسع نطاق فكرته عن الوطن فعبّر بها

الحدود وخلصها من كل ما قد يحددها .
 وربما كان وطنى الحقيقى هو السماء
 لا الأرض ، كما قال لمورين » ، صديقه
 الأسوأ منه حظاً والذي مات فى إحدى
 ساعات الرجيل .
 وهكذا نرى مزية هؤلاء الرجال
 ومزية هذه القصة . أهى قصة ؟ كلا ،
 ليست كذلك لو اعتبرنا « ثيسبوس »
 لأندريه جيد و« الباب الضيق » قصتين .
 ولا هى برواية رغم ما نراه فى بدنها من
 حبك روائى وما نلمحه فى ثناياها من
 عودة ظهور بعض الشخصيات ، وهى
 ليست مجموعة من الأفاصيص . ولا قصة
 حياة ذاتية (أوتويوجرافى) ، وليست
 مقالا ولا مؤلفاً أخلاقياً . ولنقل إنها
 كتاب فحسب . وإنى أفضل هذا
 الكتاب على كتاب « قواد الطائرات
 فى الحرب » الذى كتبه سانت إكسوبرى
 قبل موته . فلقد رأينا فى آخر كتاب
 سانت إكسوبرى صحائف مدهشة فى
 تفسير أساييع الهزيمة فى يونيه ١٩٤٠
 إذ يراها كأنها عقاب سماوى ، فكانت
 بهذا تردد روح الهزيمة الفيشية . أما
 شفرييه فانه يرفض ذلك الدين الذى
 ساد أيام بتان ، ويدوله أن فيه مساساً
 بالإنسنة : « فان الله لا يفضل شيئاً على
 شئ . . . ولا يعرف حق الرجل
 العادل بمقدار ما فيه من سنابل ،

صفة ما في بسمه البحارة ، صفة في
بسمتك وبسمتي ، وبسمه الخادمة، لينقذ
معجزة تلك الشمس التي جاهدت كل
ذلك الجهاد منذ ملايين السنين لتنتهي
أخيراً بوساطتنا إلى هذه الصفة لبسمه
ناجحة » . وإن ترتيب الكلمات هنا
ليساعد على إبراز الشاعر . ومن هنا
يحيى خطر هذه الميزة للاحتفاظ ، إذ أنها
تستطيع أن تجعل للأفكار السيئة
سلطاناً علينا . ولا شيء من هذا عند
جول روا ؛ فلغته ليست عاطفية ،
ونادراً ما تكون ضعيفة بعض
الضعف (« في ذلك الساء لم يكن جو
القداس غير عادي ») وهي دائماً
مساوية لأولئك الذين تقص حياتهم
وموتهم .

انيامبل

ولا تروى مياه السماء أرض المؤمنين
لحسب » . وإني لأعترف بأن أحب
هذه الصراحة النيرة . فالقيم الأخلاقية
لا تختار كأسعار البورصة بقصد
المضاربة (وليس من المهم أن تصعد
أو تنخفض) .
وربما لم يكن في «الوادي السعيد»
مزايا الأسلوب التي تكثر لدى مؤلف
«الطيران ليلاً» . فلغة سانت إكسوبري
أكثر طواعية لارادته وأكثر حساسية
من لغة جول روا ، وهي لهذا تستولى
علينا بطريقة أيسر . ومن ذا الذي ينسى
بسمه التجارة في « خطاب إلى أحد
الرهائن » ؟ وإن سانت إكسوبري
لا يبدو غامضاً عندما يؤكد لنا أنه
مستعد للقتال عن طيب خاطر » لينقذ

نقلها عن الفرنسية مصطفي كامل فوده

COMMENTAIRES AUTOUR D'UN GRAND LIVRE :

LA PENSEE EUROPEENNE AU XVIII^e SIECLE

BERNARD GUYON

حول كتاب خطير

الفكر الأوربي في القرن الثامن عشر^(١)

وكد لا يعرفان الفطور ، وكان متواضع الخلق ، معتدل الطبع ، بعيداً عن كل هوى حزبي ، صافي الذهن ، نافذ البصيرة ، على ثقافة واسعة كان لا يفتأ يزيدها وينميها . وموجز القول إنه من النفر الذين يرفعون شأن أوطانهم ، أكثر من العباقرة — وأغلب ما يصدر الشر عن العباقرة — ويعلون قدرها ، وينمون ثروتها العقلية ، ويهيئون الفرص الجديدة لاستمرار كيائها ، وذلك بأنارهم التي يتكابدون المشاق وينفقون السنين في إعدادها وإنشائها ، لا يسمع لهم صوت ، ولا يعلم أحد عنهم شيئاً .

وكان بول هازار — عندما مسه جناح الموت القاتم — قد بدأ يخرج من هذا الصمت وذلك الحمول ، ويذيع اسمه وينتشر في الأوساط الفرنسية ويتجاوزها إلى بلاد العالم أجمع ، وقد فتحت له الأكاديمية أبوابها ، على

في صباح يوم من أوائل سنة ١٩٤٤ ، وفي باريس ذات الوجه العابس المكتشب ، باريس سنوات الحرب والاحتلال ، عندما أنبئت أن بول هازار قد فاجأته المنية ، تولاني ذهول واغتمام ، وانتاب قلبي حزن عميق . شعرت أن فرنسا ربما لم تفقد بفقده « رجلاً عظيماً فذا » ، وعقلية ملهمة وهاجة ، من تلك العقليات التي تقلب أوضاع حياتنا وتحول مناهج تفكيرنا ، تحيط بها هالة من نور العبقرية ؛ ولكنها فقدت رجلاً يندر أمثاله بين الرجال ، جديراً بالاعجاب « شريفاً » بكل ما يتضمن هذا اللفظ الجميل من معان في اللغة الفرنسية : من أمانة هي أقصى ما تكون عليه الأمانة ، إلى تعلق بالحقيقة هو أشد ما يكون عليه التعلق بالحقيقة ، تلك الحقيقة التي في سبيل السعي إليها والبحث عنها أنفق جل حياته . كان يعمل بعزم

(١) كتب هذا المقال خاصة لمجلة « الكاتب المصري » .

وكانت ندوته ، في أيام الأحد ، ملتمى الشباب من قيان وفتيات ، يأتون إليه من كل أنحاء العالم . ولست أعرف أحداً كانت أكثر بروزاً في سلوكه منه تلك الصفة التي تعتبر على الرغم من بعض الظواهر ، لازمة من لوازم العقل الفرنسي ، أقصد القابلية للمؤثرات الخارجية .

كان أستاذاً قديراً ، وهذا أمر جدير بالذكر ؛ لأن القديرين من الأساتذة آخذون في القلة يوماً بعد يوم . لم يكن « بليغاً » في بلاغة كوزان أو حتى في بلاغة بروتتيير أو جول ليمتر ، بل كان يعني أكثر ما يعني بتكوين عقليات . كان حازماً جاداً ، يجمع إلى الحزم والجد دعابة القول . لا يشعر سامعه مطلقاً بالسأم والضجر . وكنا نخرج من محاضراته ظافرين بالوفير الجديد من المعلومات ، مفعمين بالغبطة والانشرح . وهو إن تميز بشيء فعلي الأخص بلباقته في الإرشاد والتوجيه ، يسدى الضروري من النصائح . ويحتنب العاشر من الخطوات ، ويتحاشى كل مسعى غير مجد ، وذلك في رقة لفظ وعذوبة منطق ، من غير ما تهاون أو تسامح مرذول . يشهد العوائم الواهنة ، ويحد من زهو المغرورين ، ويبعث الثقة في قلوب الوجلين المترددين ، وكان

أثر كتاب أصدره هو غاية في الإبداع عنوانه : « أزمة الضمير الأوربي في القرن الثامن عشر » ، يتضمن آراء من شأنها أن تحدث انقلاباً في بعض الاتجاهات والأهداف التاريخية المتوارثة ؛ ولكنه قبل ذلك بسنوات طوال ، كان قد احتل أرفع مكانة من قلوب الطلاب ، فرنسيين وغرباء ، يقبلون عليه في ازدياد مستمر ، ويستشيرونه ويستمعون إليه كل الاستماع ، يكونون له غاية الحب ، مفتونين بعلمه الذي كان يعرف طريقه إلى القلوب ، مأخوذين بوسع معارفه التي لم تكن يوماً من الأيام سبيلاً إلى العدوان ، معجبين بحرصه على أناقة الأسلوب وسحر العبارة ، ذلك الحرص الذي يندر أن يوجد بين كبار أساتذة الجامعة .

كنت واحداً من السعداء الذين كانوا يتزاحمون ساعين إلى محاضراته في السربون حوالي ١٩٢٢ ، والذين كانوا فيما بعد يحذقون به داخل قاعات الكوليج دي فرانس ، حيث كان يخلو إلى نفسه ، طارحاً عن ذهنه كل تفكير في الامتحانات والتحضير لها ، ويواصل بحوثه العلمية في ذلك الطريق الجديد الذي اشتقه وفرنان بلدنسبرجيه حديثاً ، أعنى طريق الأدب المقارن .

يعرف أيضاً كيف يقضى حاجة من هو في حاجة إلى المادة في تكتم وحذر. إن بول هازار لم يكن عقلاً كبيراً فحسب ، بل كان أيضاً ذا قلب ذكى عظيم .

زرتة قبل أن توافيه نيته ببضعة أيام ، ولم يكن هناك ما يندر بالفاجعة الوشيكة . لا شك أنه مثل غيره من رجال الفكر الفرنسيين قد أثرت في أعماق نفسه مصائب قومه ، غير أنه كان يعلم أن لتلك المصائب نهاية قريبة . وكان صدره يحيش بالأمل ، شأنه في ذلك شأن كل ذوى البصيرة من أبناء الوطن . وقد انتهر فرصة هذه السنوات التي اضطر فيها إلى السكون ، ليقبل على العمل بنشاط وحرارة كان لا يعهد لها في نفسه من قبل . وكان يتحدث إلى بحاسة الشباب عن مكتشفاته الحديثة في تلك الميادين المظلمة من ميادين الفكر الصوفي في القرن الثامن عشر ، التي شرع الآن يجول فيها . وقد أبدى لى على الأخص اغتباطه بانهاء الجزء الثانى من تلك اللوحة الفنية الضخمة التي بدأ العمل فيها منذ عشر سنوات خلت ، والتي سيكون عنوانها : « حركة الفكر الأوربى في القرن الثامن عشر » .

وها هو ذا الكتاب يظهر اليوم ، وقد وصل إلينا من فرنسا يثير فينا شعور الأسى والاعجاب معاً . وأريد

الآن أن أقدمه في كلمة وجيزة ، وأن أجلو المسائل العقلية الجليلة الخطيرة التي يريدنا أن نتأمل فيها .

- قصد بول هازار في هذه المجلدات الثلاثة (ومنها واحد للشروح ، والخواشى ، والأخيران للنصوص) . إلى دراسة تطور الحركة الفكرية في أوروبا ، مبتدئاً من حيث انتهى في مؤلفه السابق ، أى من ١٧١٥ - تلك السنة التي انفجرت فيها « الأزمة » بعد أن ظلت طويلاً مكبوتة كاسنة - إلى الساعة التي أشرف فيها جيل جديد على الظهور ، ليتجه ، عشية الثورة الفرنسية ، بالمسائل القائمة اتجاهاً غير اتجاهاها ، ويحطم أصناماً غير التي حطمت ويعرض حقائق غير التي عرضت . فالمادة للمؤلف غزيرة مترامية الأطراف ، ومع ذلك فمؤرخنا يمتلك ناصيتها ، ويحيط بأشتاتها بسهولة تامة . وهو يظهر لنا بوضوح تاريخ الفكر في هذه السنوات الستين ، عبارة عن قصة مجهود فخم انتهى في آخر أمره إلى إخفاق ذريع .

مجهود ضخم هو في الوقت نفسه هدمى وبنائى . وعملية الهدم فيه منصبة على الدين المسيحى ، وكانت صيحة الهادمين : « لنسحق الرجس » . كلنا يعرف ذلك ، وتلك الظاهرة من تاريخ

بهذا العالم الأرضي وهو ما يتخذه الدين الطبيعي إلها له . إن هذا المذهب الانساني الجديد يحصر جهوده ويوجهها نحو بناء مدينة للبشر ، وهو يستعين بالعلم لنشر السعادة فيها . فالعلم يفتح أمام الانسان آفاقاً لا حد لها من الاحتمالات ، فترى بوقون يضع الانسان في موضع المركز من عالم يكون هو ملكا عليه ، هذا في حين يحاول مفكرون آخرون أن يبنوا الحق على أساس الطبيعة . ومؤلف « روح القوانين » الشهير له في هذه المحاولة شأن عظيم . ويفكر غير هؤلاء في مسائل الأخلاق ويخرجون من تفكيرهم بأن الأخلاق لابد أن تهدف كلها منذ اليوم إلى تحقيق السعادة ، وهم يردون إلى اللذة والشهوة اعتبارهما بعد أن أفهمتها التعاليم المسيحية أن نحذرهما وأن نترفع عنهما . غير أن هؤلاء المفكرين يشيدون في الوقت نفسه بالفضائل الجديدة من تسامح ومحبة للبشر ، ويجهدون أنفسهم في سبيل تطبيق نظرية الأخلاق الطبيعية في العلاقات بين سكان المدينة نفسها ، ويحلون بالعقود الاجتماعية ، في الوقت الذي يمجدون فيه مبادئ الحرية والمساواة ، ويحيطون بمبدأ الملكية بنوع من الاحترام هو أقرب ما يكون إلى التقديس . والأمر الأخير

هذا العصر ، معلومة لدينا أكثر من غيرها . ومزية بول هازار في هذا الجزء من كتابه ، أنه يجعلنا نحس ، بالناحية الفاجعة الحادة ، لهذا النزاع الفكري البعيد المدى ، الذي لم يكن ، على حد تعبير الكاتب ، سوى « قضية الله » . ونجد ناحية طريفة أخرى في كتابه ، هي أنه أخرج من الظلمة وخمول الذكر أولئك الذين طمسهم ظلم وجوراً عبقرية فولتير وديدرو وأنشأها ؛ لأنهم تولوا في هذه القضية مهمة الدفاع ، نذكر منهم فريرون ، وباليسو ومن نهجوا نهجها ؛ فقد بذلوا هم أيضاً جهداً محموداً ، لا يتقصهم الذكاء ولا تعوزهم الشجاعة ولا تخذلهم حدة الذهن وسرعة الخاطر .

وعلى أية حال ، لا يكفي أن تفصل الثوب وتقطع أجزائه ، بل يجب أن تتم خياطته ؛ فإذا استبدل بالثل الأعلى المسيحي الذي رفض رفضاً نهائياً ؟ شرع الفلاسفة يبحثون عن مذهب إنساني جديد ، مذهب إنساني يكون الانسان فيه مركز هذا العالم ، ويقصى الله عنه إقصاء فعلياً . لاهك أنه توجد أشكال متباينة للنظرية الالهية ، غير أن هذه الأشكال كلها لا تجعل من الله إلا ذلك الكائن الأعلى القصي الذي لا يهتم أدنى اهتمام بالأحداث الحثيرة التي تمر

على المؤرخ الذى يريد أن يقف بل هو واقف فعلا موقف الموضوعية من كتابه . وإن القارئ يشعر من خلال بعض الصفحات اضطراب نفس قلقه تبحث عن الحقيقة . ويطلعنا المؤرخ ، من غير أن يحرف فى النصوص أو أن يحملها أكثر مما تحتل ، ومن غير أى هوى وأى تعسف ، يطلعنا أو بالأحرى يبرهن لنا — وقد استحال فى نفس الوقت فيلسوفاً — على الصعوبات المعقدة التى كان يصطدم بها حلم الفلاسفة . وهو يرجع كل هذه الصعوبات إلى خطأ فى أساس فهم معنى كلمة « الطبيعة » . فهناك تعارض بين الطبيعة والعقل نشأ عنه النزاع الهائل بين أصحاب المذهب التجريبي وأصحاب المذهب العقلى . وهناك تعارض بين الطبيعة والطبيعة شجر عنه الخلاف حول طبيعة الرجل الهمجى ومنافع أو مساوى الحضارة . ونحن مدينون بقصة « كانديد » ، آية هذا العصر ، للعراك الذى احتدم بين أهل التفاؤل وأهل التشاؤم ، وهو واحد من أوجه النزاع الكبير بين فولتير وروسو . وهناك تعارض بين الطبيعة والحكومة الصالحة ، أدى إلى البدعة القائلة بالاستبداد المستنير . وهناك تعارض بين

الذى لا يقل تأثرنا به عن تأثرنا بغيره من هذه المشروعات الطموح الواسعة . أننا بينما نرى الملوك لا يفتأون يشتبكون فى حروب تافهة دامية ، نجد رجال الفكر يرسمون الخطط لتشييد سلم دولى ، ويضع الأب دى سان بيير أسس أول عصبة للأمم .

يخشى بول هازار كل هذه الوقائع فى عدد من الفصول تمتاز بوضوحها وتركيزها ، وتبدو فيها فكرة البناء فى مجموعها عند هؤلاء المفكرين من رجال القرن الثامن عشر ، كوحدة متماسكة متناسقة ، من غير أن يتخذ الكتاب لعرض ذلك صبغة الرسالة العلمية الجافة . ثم يدرس المؤلف فى سلسلة من الفصول التكميلية ، ذىوع هذه الفكرة بفضل وسائل التعميم والنشر ، فينسب بطبيعة الحال شأنًا عظيمًا لموسوعة ديدرو ودالمبير الشهيرة التى دارت حولها معارك حامية الوطيس .

وفى المجلد الثانى الذى يحتوى وحده على الجزء الثالث كله تحت عنوان « الانحلال » ، يتناول بول هازار مسألة الإخفاق الذى انتهى إليه هذا المجهود الضخم . ويبدو لى هذا الجزء أكثر طرافة وأمتن من أى جزء آخر ، كما يبدو لى أن الكاتب شاء أن يضمه آراءه الخاصة تحت ستار الجمود الواجب

الطبيعة والحرية . ونجد مونتسكيو ، وقد بدأ على أساس تعريف للقانون يقوم على الجبرية ، يسائل : كيف يصل إلى نظام تسوده الحرية .

ثم يتابع بول هازار تحليله ويصور لنا مطالب رجل العاطف وموقفه إزاء هذا الجفاف البادى فى مثل أعلى فوق عقلى . ويتناول فى الفصول الثلاثة الأخيرة من مؤلفه الرائع المسألة الميتافيزيقية الأساسية ، فيظهر لنا ما كان من أمر ثلاثة من كبار الفلاسفة الإلهيين فى ذلك العصر : وهم : بوب ولسنج وفولتير ، وقد عجزوا عن أن يستبدلوا بالدين الذى يجدون فى هدمه ، ديناً آخر ، هو القدرية التى تدفعهم إلى مناهضة رجال الأكليروس مناهضة بلغت أقصى حدود السفالة ، وتذهب بهم إلى الإلحاد الصريح .

ونحن نرى من هذه النظرة التحليلية السريعة غزارة المادة فى هذا الكتاب . وأرجو أن أكون قد جعلت القارئ يلمس قوة التركيز والتأليف عند صاحبه ، والطريقة الباهرة التى يمتلك بها ناصية مادته . أما الذى أراى عاجزاً عن بيانه — مالم أستشهد بصفحات كاملة — فهى اللذة فى مطالعة الكتاب . وقد يبدو أحياناً أن هذه

الصفحة أو تلك كلفت صاحبها عناء أكثر مما يجب فجاءت مهذبة فوق مايلزم . فالعيب الذى كان يخشى أن ينزلق إليه بول هازار هو المغالاة فى التأنيق ، نتيجة الاهتمام المفرط برشاقة العبارة ، وقد وقع فى التجربة فكان يستجيب فى مؤلفه إلى هذا الإغراء . وكنا نود لو أنه أقلع قليلاً عن أسلوب التكلف وأخذ أكثر بالأسلوب الطبيعى . غير أن من حقه علينا أن نبادر فنقول إن هذا العيب ليس فى الواقع إلا وجهاً واحداً لصفة نادرة تميز بها بول هازار ، فالعناية بتهديب العبارة أصبحت من الندرة فى عصرنا إلى درجة أننا لا نستطيع أن نمر بدون حكم على هذه المآخذ الطفيفة .

والذى يجب أن نذكره قبل أن ننهى من مديحنا هو ما امتاز به بول هازار من أمانة تامة فى الاستقصاء العلمى . وأخشى أن تفوت ملاحظة ذلك العدد الكبير من القراء الذين سيطلعون هذا الكتاب من غير أن يرجعوا إلى المجلد الثالث الخاص بالشروح والمراجع ، ويعتبر تكملة لا غنى عنها . ولا يسعنى إلا أن ألح فى توصية من سيثير فيهم مقالى رغبة الاطلاع على هذا الأثر ، أن يقتنوا كذلك المجلد الثالث . فهم لن يقتبسوا

منه درساً رائعاً في منهاج النقد فحسب ، بل سوف يقعون فيه على ذخيرة لاتنفى من الإرشادات النفيسة المتممة للبحث ، كما سيجدون نقطة ابتداء تمهد لهم سبيل التعمق في دراسة بعض المسائل التي عرض لها بول هازار ، عليهم يوفقون لحل جديد لها . وبمثل هذه البحوث المتصلة يتكوّن العلم ، فالعلم ليس بالأمر الجامد المستقر . إن العلم يصنع صنعاً .

ويبدو لي أن لكتاب بول هازار ، على ما أحيط به من مظاهر الوقار والجد الملازمة لكل مؤلف تاريخي ، أقول يبدو لي أن لهذا الكتاب الذي يؤرخ لحركة الفكر الأوربي في القرن الثامن عشر ، قيمة عصرية حقة . ولهذا السبب فاني لا اعتبره أهم أثر أنتجه الأدب الفرنسي في تلك الأشهر الأخيرة فحسب ، بل أقوى الآثار تنبيهاً للفكر وتحريكاً للعاطفة .

ومن واجبنا ألا ننكر على أنفسنا أننا لم نكد نتقدم البتة منذ مائة وخمسين عاماً وهذا الفكر الأوربي ماقتى يواجه المعضلة نفسها : هل نستبدل بالمسيحية ديناً جديداً ؟ أم نبعث فيها حياة أخرى ؟ وإن عملنا على إلزاتها فبماذا نعوضها ؟ وإذا كانت الخطوب المروعة التي أوشكت أن تهدم

مرح الحصار الغربية إلى الأبد قد انتهت ، فان المشكلة لا تزال قائمة كما هي ، وعلينا نحن رجال اليوم تقع تبعة حلها على ضوء تجارب الماضي .

والكتاب يركز انتباهنا كله في هذه المسألة الأساسية ، غير أنه يشير أيضاً من المسائل الأخرى ما لا نستطيع أن نقف إزاءه جامدين ، فهو يقرب إلى أذهاننا ومشاعرنا تلك الحقيقة التي تدعى « أوربا » . وليس الفكر الفرنسي هو موضوع الدراسة بل الفكر الأوربي . ولا بد أن يشعر الشاب الفرنسي عند قراءة هذا الكتاب بلذة هي لذة من يكتشف اكتشافاً حقاً ، وذلك يرجع إلى ما في هذا الأثر من تغير في وجهة التاريخ . وسوف يكون هذا الشاب لنفسه عن تاريخ بلده الفكري آراء جديدة ، لأنه سيجدهذا التاريخ ممزوجاً بتاريخ البلاد المجاورة يلقيه ويأخذ عنه في الوقت نفسه ، عن طريق محسوس أو غير محسوس ، ولكنهما يكونان جزءاً من حقيقة واحدة .

وسوف يشعر هذا الشاب بالغبطة ويملؤه الزهو عندما يدرك أن فرنسا وأوربا كانتا في ذلك العصر تتمتجان في ميدان الفكر امتزاجاً كلياً ، وللمرة الثانية من تاريخ الحضارة الأوروبية ،

تشرف فرنسا على القارة كلها ، أما المرة الأولى فكانت في تلك الفترة الباهرة التي تقع بين نهاية القرن الثاني عشر وبداية القرن الثالث عشر ، والتي تعتبر بحق فترة إحياء ونهوض . وما يثير فينا الإعجاب ، ويوجب هذه السيادة إلى قلوبنا على الأخص ، ويدعونا إلى الفخر بها جهرا ، أنها لم تشبها سيادة مادية ؛ فلا جيوشنا أغارت على أوروبا ولا تجارنا غزوها ، بل رجال الفكر منا ورجال التربية ومتعهدو البساتين والطباخون فقط . وفي الوقت الذي كانت الهزائم المروعة تتلاحق على فرنسا ، الدولة الحربية البحرية المستعمرة ، وفي الوقت الذي كان فردريك الثاني ملك بروسيا ينكل بجيوشها في روسباخ ، من الجميل حقا أن نرى أنوار المعرفة تنبعث منها

كأسطع ماتكون ، وأن نرى فردريك نفسه يجد غير لائق به أن ينظم شعراً لا يكون فرنسيا ، وأن نرى الأكاديمية التي أنشأها في عاصمة ملكه قد اختارت لمباراة أدبية أقامتها موضوعاً أعنوانه : « الأسباب التي تجعل من اللغة الفرنسية لغة جامعة عامة » .

ربما كنت قد أسهبت في موضوع لا يثير إلا اهتمام الفرنسيين ، فليغفر لي قارئ ذلك الإسهاب . أما بعد فليس موضوع مقالى إلا واحداً من موضوعات كثيرة يعرضها لنا هذا السفر النفيس مادة للتأمل . وإن هناك لموضوعات أخرى ليس إلى حصرها من سبيل ، ولكنى أرجو أن يكون ما ذكرت كافياً ليحفز القراء على مطالعته ، وهذا ما قصدت إليه من مقالى .

برناه جبريه

نقلها من الفرنسية إلياس نعمان حكيم